١

عالمية القرآن

فى رمضان ١٣٨٧هـ (ديسمبر ١٩٦٧) بدأ العالم الإسلامى احتفالاته ، بذكرى مرور أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرآن ، على قلب النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو يتعبد وحيداً فى غار حراء .

واستمرت الاحتفالات عاماً كاملا ، وشملت أقطاراً فيها أقليات إسلامية ، رأت حكوماتها — مشكورة — أن تشارك فى هذه المناسبة رسمياً وشعبياً . وتنوعت الأساليب التى عبر بها العالم الإسلامى عن إيمانه بالقرآن الكريم : فعقد المؤتمرات العلمية ، وألحق بها معارض لمطبوعات القرآن والكتب التى تتناول دراسته ، وأرسى أحجار الأساس فى مساجد ومؤسسات دينية تضم الخدمات الاجتماعية والثقافية والصحية ، إلى جانب العبادة وإقامة الشعائر ، ونشر بحوثاً وكتباً عن القرآن والتعريف بالعالم الإسلامى ومشكلاته المعاصرة ، وترجمة معانى القرآن إلى لغات جديدة لم يسبق الترجمة إليها .. واتجهت هذه الجهود جميعاً إلى تحقيق الأهداف النبيلة التى أنزل من أجلها القرآن : تأكيداً لكرامة الإنسان وصعوداً بالمجتمع إلى آفاق من التقدم المتكامل ، وعناية بالأجيال الجديدة من أبناء الإسلام ، وتوثيقاً للصلات بينهم وبين كتاب قال الله فى حقه :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبع رِضْوَانَه سُبُلَ السَّلَامِ ، ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ » [المائدة : ١٥ – ١٦] .

فلنحاول معاً أن نتذاكر بعض الركائز التى جعلت للقرآن هذه المكانة العالمية .

١ – شمول الإيمان

لقد دعانا ربنا فى كتابه إلى أن نؤمن بالرسل جميعاً ، وفى هذا يقول ربنا :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقالوا : سَمِعْنَا وأَطَعْنَا ، غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِليك المَصِيرُ » [البقرة : ٢٨٥] .

وجوهر هذا الإيمان إسلام النفس لله تعالى لتنطلق من هذا الإسلام تعمل الخير مؤمنة أن مردها إلى الله .

نرى هذا « الإسلام » فى قول إبراهيم وإسماعيل : « وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَواعِدَ مِنْ البَيْتِ وإسماعيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ » [البقرة ١٢٧]

ثم يدعوان ربهما بعد هذا قائلين : « رَبَّنَا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ

لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وأَرِنا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوابُ الرحيمُ * ربَّنَا وابْعثْ فِيهِمْ رسولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ ويُعلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الحكيمُ » [البقرة : ١٢٨ ـ ١٢٩] .

ثم يؤكد ربنا هذه الوجهة فى الحياة : الإيمان بالله وإسلام النفس إليه فيقول : «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه؟ ولَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا ، وإِنَّهُ فى الآخرة لَمِن الصَّالِحِينَ * إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ قال : أَسْلَمتُ لِرَبِّ العَالَمين » [البقرة : ١٣٠ ـ ١٣١] .

ويحس إبراهيم حلاوة الإيمان . ويعيش فى حياته مؤمناً مجاهداً فى أكثر من قطر من أقطار وطننا العربى ، يدعو إلى الله ، ويخاصم قومه من أجل الحق ويحطم الأصنام ، ويهاجر أكثر من مرة ، ويبنى البيت العتيق ، ويرى فى الإيمان أعظم ما أعطاه الله ، فإذا به وصيته إلى أبنائه : «وَوَصَّى بِهَا إبراهيمُ بَنِيهِ ويعقوبُ : يَابَنِىَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »[البقرة١٣٢] .

ويرى يعقوب أن هذا الإيمان هو الكنز الذى يكون حديثه عنه ، آخر قوله وهو يودع حياته . يذكر الإيمان ولا يذكر جاهاً ولا مالا :

« أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا : نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وإِلٰهَ آبَائِكَ إِبراهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسحقَ إِلٰهاً واحِدًا . ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » . [البقرة : ١٣٣] .

ويقول يوسف : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وعلَّمْتَنِى مِنْ تأْوِيلِ الأَحاديثِ فاطِرَ السَّمَواتِ والأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنيا والآخرةِ تَوَفَّنى مُسلِمًا وأَلحقْنى بالصَّالِحينَ » . [يوسف : ١٠١].

وتسمعها على لسان عيسى : « فَلَمَّا أَحَسَّ عيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قال : من أَنْصَارِى إِلى اللهِ ؟ قال الحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، آمَنَّا باللهِ ، واشْهَدْ بأَنَّا مُسلمُونَ » [آل عمران : ٥٢]

هذا هو الشمول الذى رضيه لنا ربنا فى قوله فى ختام ما أنزل من قرآن :

« اليَوْمَ أكملتُ لَكُمْ دينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عليكم نِعْمَتِى ورضيتُ لكُمُ الإِسْلامَ دينًا » (المائدة : ٣) .

ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الإيمان الشامل بحديث يصور لنا فيه استمرار عمل الأنبياء وجهادهم بصورة حسية فيقول :

« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فحسنه وجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يلفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (رواه الشيخان) .

فشبه نفسه وهو رحمة الله المهداة وصفوته من خلقه بلبنة فى زاوية من زاويا بيت جميل حسن . . هكذا يعلمنا رسولنا التواضع وصَدق الله :

« وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » . [القلم : ٤]

إنه إيمان لا يتقيد بعصر أو قطر ، وإنما هو إيمان فسيح يضم الأنبياء والرسل ، ويرى جهادهم جميعاً حلقات متتابعة ، من سلسة الوحى التى ختمها الله برسوله ، وحدد بها للإنسانية خط سيرها ومنحها رشدها . .

٢ ــ العلم

وهو إيمان يقوم على أساس عريض من العلم . ولو كان هناك شىء أكرم من العلم لأمر الله نبيه أن يطلبه منه عندما علمه أن يقول :

« وقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً » [طه : ١١٤]

إن القرآن آيات لأولى الألباب . . لقوم يتفكرون . . لقوم يتذكرون . لقوم يعقلون . . لأولى النهى . .

وهذا الكون العريض الذى خلقه لنا ربنا ، فيه آيات للموقنين . .

« وفى أَنْفُسكم أَفلا تُبْصِرُونَ ؟ » [الذاريات : ٢١]

وربنا يقول : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وفِى أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقُّ . أَو لم يَكْفِ بِرَبِّك أَنَّهُ عَلَى كُلِّ

شيء شهيدٌ » [فصلت : ٥٣] .

وأول ما أنزل ربنا من قرآن كان قوله : « اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقرأْ وربُّك الأَكرمُ * الَّذِي علَّمَ بالقَلَمِ * علَّمَ الإِنْسَانَ ما لم يَعْلَمْ » [العلق : ١-٥]

فهي قراءة . ولكنها باسم ربك الذى خلق . وقد يقرأ الإنسان ويكتسب علماً ، ولكنه يجعل هذا كله فى خدمة أهوائه وشهواته . . وقد يكون عند شعوب ودول علم ، ولكنها لا تقرؤه باسم الله . . . وإنما تجعله حكراً وأسراراً ، ثم تستخدمه بعد هذا فى إذلال شعوب وبغى بالباطل .

من أجل ذلك يفرق القرآن الكريم بين صنفين من العلم ذكرهما فى قصة قارون . . الأول ما اغتر به قارون فنصحه قومه : « لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحين * وابْتَغِ فِيمَا آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخرةَ ، ولا تَنْسَ نصيبَكَ مِنَ الدُّنيا ، وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليْكَ ، ولا تَبْغِ الفَسَادَ فى الأَرْضِ . إنَّ اللهَ لا يحبُّ المُفْسِدين » فكان قوله : « إِنَّمَا أُوتيتُهُ على عِلْمٍ عِنْدِى » فهو لم يرد هذا العلم إلى ربه ، ولم يكن عمله فى حياته موجهاً إلى مرضاة ربه . . وهذا العلم الأصم هو الذى استهوى أنظار بعض قومه فقالوا : « يَا لَيْتَ لنا مثْلَ ما أُوتِىَ قارونُ إنَّه لَذُو حظٍّ عظيم » . فى حين استطاع الآخرون أن ينفذوا إلى حقيقة ما فيه قارون من استطالة كاذبة واستعلاء بالباطل .

وذكر الله لنا أمرهم فى قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيْلَكُمْ ، ثَوَابُ اللهِ خيرٌ لمن آمن وعَمِلَ صَالحاً ، ولا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون » [القصص : ٧٦ — ٨٠] .

العلم الذى نتعلمه ونقرؤه ، علينا أن نذكر دائماً فيه قول الله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » فى هذه الآية جمع بين العمل والنية ، بين الجهد والهدف . إنها تحدد أخلاقيات البحث العلمى ، وتذكر الإنسان بالأصل الذى جاء منه . . خُلق الإنسان من علق . فكما أن ربك ربّاك ورعاك حتى أصبحت بشراً سويا ، وأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، فاجعل علمك وقراءتك باسم ربك . وكما أكرمك ربك بهذا — وهو ربك الأكرم — فإنه يبين لك أعظم إكرامه لك بعد هذا بقوله :

« الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

رحلة طويلة من « خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » إلى « عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . . رحلة تبدو فيها قدرة ربنا ورحمته وكرمه : منه البدء وإليه الرجعى .

وهذا العلم الذى نكتسبه فى حياتنا ليس حقائق متناثرة ، ولا مجموعة من المصادفات تتدفق دون وحدة تنتظمها ، أو قوانين تحدد مسارها . . وإنما يعلمنا ربنا أن نبحث عن سنته فى كونه : « قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذِّبين » [آل عمران : ١٣٧] .

وجههم ربنا إلى هذا بعد النكسة فى غزوة أحد . . كيف تهزمهم

قريش وهم مؤمنون ؟ كيف يُهزمون وقائدهم رسول الله؟ وعليه يتنزل القرآن ؟ لقد انتصروا فى بدر فماذا أصابهم فى أحد ؟ ويعلمهم الله فيقول :

« أَوَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قد أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قلتم : أَنَّى هذا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفسِكُمْ . إِنَّ اللهَ على كُلِّ شىءٍ قديرٌ * وما أَصابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَان فَبِإِذْنِ اللهِ » [آل عمران : ١٦٥ – ١٦٦]

فللنصر قوانين وللهزيمة قوانين . ومن الممكن أن يُهزم المسلمون وإن كان قائد المعركة رسول الله ، وعليه يتنزل الوحى ، إذا ما خالف الصحابة عن أمره . فإذا ما أردتم أن ترتفعوا فوق نكستكم ، فعليكم بمعرفة سنن الله فى الحياة . . ادرسوا هذه السنن فى أنفسكم ، وابحثوا عنها فى أقطار الأرض . سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

إن أمر النصر والهزيمة ليس معجزات وخوارق كونية ، وإنما هو إيمان وعلم وعمل وتنظيم واستعداد . إنه جهد وعرق وثبات فى الميدان .. إنه منهج تعرفون به أمر عدوكم وأمر أنفسكم ، فتسلكون طريقكم على هدى وبصيرة .

إن الله يدعونا إلى أن نسير فى ضوء العلم فيقول : « ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » [الإسراء : ٣٦] .

إنه القرآن الذى يعتبر تعطيل الحواس وعدم استخدامها ، جرماً يستحق عليه الإنسان ذل الحياة وعذاب الآخرة . ولنسمع فى هذا قول الله تعالى

عن أهل النار : « وقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فاعْتَرفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِير »
[الملك: ١٠ — ١١]

ويجعل العلم أساساً من أسس المفاضلة بين الأفراد فيقول: « قلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُون ؛ إنما يَتَذَكَّرُ أُولوا الأَلْباب »
[الزمر : ٩] .

هذا هو العلم الذى ذكر الله مشتقاته فى القرآن فى نحو ثمانمائة وخمسين موضعاً ، تكريماً له وتعظيماً ، والذى دعانا ربنا إلى أن نطلبه ونسير مهاجرين فى طلبه ، وساوى فيه الإسلام بين مداد العلماء ودم الشهداء .

٣ ــ العمل

وهو ليس علماً نظرياً يكتفى بمجرد التحصيل دون أن يستجيب لحاجات الحياة المتجددة ويرقى بها إلى الآفاق التى أرادها لها ربها ، وإنما هو علم ترتبط فيه الفكرة بالتنفيذ ، والعقيدة بالعمل . وفى هذا نسمع قول الله : « إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثم اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ولا تَحْزنوا وأَبْشِرُوا بالجنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدونَ » [فصلت : ٣٠].

وهى استقامة شاملة مرافق الحياة جميعاً . . تستغرق — فيما تستغرق —

شئون الإنتاج والخدمات والبحث العلمى والدفاع . . وهى فى الوقت نفسه تنظم طاقة الأمة وتوجهها نحو الهدف الكبير الذى تسعى إليه .

فى مرحلة كالتى نمر فيها الآن . تبرز حاجة أمتنا إلى استكمال استعدادها استرداداً لأرضنا ومقدساتنا . وفى هذا نقرأ قول الله تعالى :

« وأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُم من قُوَّةٍ ومن رباطِ الخَيْلِ تُرْهِبون به عَدُوَّ اللهِ وعدوَّكُمْ ، وآخرين من دُونِهِمْ لا تعْلمونهم ، الله يَعْلَمُهُمْ ، وما تُنْفِقُوا من شىءٍ فى سبيل اللهِ يُوَفَّ إليكم وأَنتم لا تُظْلَمُونَ » [الأنفال : ٦٠]

الإعداد هنا عمل . . عمل على أساس علمى منظم ، ينبغى أن ترتفع فاعليته حتى تحقق هدفين رئيسيين : أولهما إرهاب عدو الله وعدونا الذى نعرفه ، والثانى معامل احتياط أو معامل أمان يرهب خصماً لا نعرفه ، يقول فيه ربنا : «وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ الله يَعْلَمُهم ».

وإذا كان هذا المستوى يحتاج إلى جهد علمى لا تتوافر عندنا مصادره ، فعلينا أن نطلبه حيث يتوافر . وطلبه حينئذ فرض علينا . وبهذا نضع العلم فى خدمة الإنسان ، دون أن يظل ترفاً عقلياً غير مرتبط بمتطلبات الحياة المتجددة .

والعمل هنا — كالعلم — ليس جهوداً فردية عشوائية ، وإنما ينبغى أن ينتظمه تخطيط دقيق ، ترتفع به فاعلية العلم إلى أقصى مدى ممكن ، دون إفراط أو تفريط . وبهذا يبدو الترابط الدقيق بين الإيمان والعلم والعمل . .

٤ ـ كرامة الإنسان

وكل ذلك جعله الله تعالى من أجل كرامة الإنسان . . الذى كرمه الله بأن خلقه وسواه ، وأسجد لأبينا الأول ملائكته بعد أن علمه الأسماء كلها . .

كرامة بالخلْق .

كرامة بالعلم .

كرامة بالاستخلاف فى هذه الأرض : « وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فى الأَرضِ خَلِيفَةً » .

كرامة بالمساواة بين الناس نجدها فى قوله تعالى : « يـأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعلنَاكم شُعوباً وقبائِل لتَعَارفُوا ،إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عنْدَ الله أَتْقَاكُم إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ » [الحجرات : ١٣]

كرامة تتساقط دونها حواجز اللون والعنصرية والطبقية ، ويرتفع معها صوت النبوة فى حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » ثم يشهد الله على قوله : « ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد » فترد الجموع المؤمنة فى موقف الحج الأكبر « نعم » قال : « فليبلغ الشاهد الغائب » .

وما زلت أذكر أياماً فى المسجد النبوى الشريف بعد أداء فريضة الحج ، وجموع المسلمين تتوافد على المسجد على اختلاف ألسنتهم وألوانهم . . كلهم أمام الله سواء . وفى بيته سواء . . وفى الحياة سواء . . لا يسألهم أحد عن أجناسهم وألوانهم ومواطنهم . وإنما جمعهم الإيمان الواحد بالرب الواحد وخاتم المرسلين ، وضمتهم أخوة إنسانية واحدة . .

وترتفع عيناى إلى زخارف الصحن الجديد ، فى الجزء الخلفى من المسجد ، فأرى أسماء الصحابة وقد زينت عقود الصحن ، وتتوقف عيناى عند أسماء بلال بن أبى رباح ، وصهيب بن سنان ، وسلمان الفارسى رضى الله عنهم أجمعين : الأول يعود بأصله إلى الحبشة . . إلى إفريقية ، والثانى إلى اليمن ، وعاش شطراً من حياته فى أرض الروم ، حتى عرف باسم صهيب الرومى ، والثالث من فارس : مجد المسلمون أسماءهم ، فزينوا بها المسجد النبوى على اختلاف ألوانهم .

بلال كان مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحضر والسفر . . صحبه فى المشاهد كلها ، وما تخلف عنه فى غزوة . . بلال كان رقيقاً حبشياً . وعذبه كفار قريش عندما أسلم ، فكانوا يلقونه على الصخور فى وقدة الحر ، ويشتدون فى تعذيبه فلا يزيد على أن يقول معلناً إيمانه : « أحد . . أحد . . » ولم يرض رغم التعذيب العنيد ، أن يدنس لسانه بكلمة الكفر ، بعد أن طهره الله تعالى بكلمة الإيمان .

ويشتريه أبو بكر ويعتقه ، فيقول فى هذا عمر بن الخطاب : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا (يعنى بلالا) . ويدخر الله له فضلا كبيراً ، فيكون مؤذن الرسول فى المسجد النبوى .

ويدعوه الرسول إلى الآذان فوق الكعبة عام الفتح ، فيكون أول من ارتفع فوقها بالتكبير . ولم يكن ذلك يسيراً على قريش وكبريائها ، فيقول عتاب ابن أسيد ، وقد أسلم يوم الفتح ، وكأنه يعبر عن وجهة نظر قريش كلها

عندما صعد بلال فوق ظهر الكعبة مؤذناً : « الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم » . وقال الحارث بن هشام : «أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً » ؟ ! . . .

وفى هذه العصبية اللونية ينزل قول الله تعالى محدداً أساس الحياة الإنسانية فى آمادها وأقطارها : « يـأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خلقْنَاكُم مِنْ ذكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِل لِتَعارفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عند الله أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ » [الحجرات :١٣]

ويدعوه عمر بن الخطاب إلى الأذان فى بيت المقدس عندما حرره المسلمون فيكون أول صوت يرتفع فيه بالتكبير .

فضل ادخره الله لرجل بدأ حياته فى الإسلام رقيقاً حبشياً من إفريقية ، فعاش فى مجتمع كريم أذهب الله عنه نعرة الجاهلية وتعاظمها بالآباء . .

وسلمان الفارسى الذى دفعه البحث عن الإيمان إلى أن يترك وطنه فى فارس فى رحلة مؤمنة إلى الشام ، ثم إلى الجزيرة العربية ، ويؤمن بربه ويجاهد مع رسوله ويقول عنه الرسول عليه السلام : « سلمان منا أهل البيت » . وهو الذى يشير على الرسول بخطة حفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب ، فيكون ذلك من التخطيط العسكرى الذى تقف دونه قريش عاجزة . ولقد كانت غزوة الأحزاب غزوة قاسية تغلب فيها الإيمان والعمل العلمى ، الذى أطلق طاقات الصحابة . دون نظر إلى ألوانهم أو أعراقهم التى جاءوا منها . .

وصهيب الرومى يهاجر من مكة إلى الله بدينه لا يعنيه إلا أمر إيمانه ، ويتتبعه رجال من قريش يريدون القبض عليه وإعادته إلى مكة ، فيلتفت إليهم كالأسد المهصور ، وبين يديه سهامه وقوسه ، وعلى عاتقه سيفه

ويقول : « والله لقد علمتم أنى من أرماكم ، ووالله لا تصلون إلى حتى أقتل بكل سهم من هذه رجلا منكم ثم أقاتلكم بسيفى حتى أقتل . وإن كنتم تريدون المال فأنا أدلكم على مالى . هو مدفون فى مكان كذا وكذا » فانصرفوا عنه فأخذوا ماله .

فلما قدم قال له رسول الله: « ربح البيع أبا يحيى » وأنزل الله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَه ابتِغَاءَ مرضاةِ اللهِ واللهُ رءُوفٌ بالعبادِ » [البقرة :٢٠٧] .

ولما جعل عمر الأمر شورى بين الستة ليختاروا من بينهم خليفة كان هو الذى يصلى بالناس حتى تعين عثمان . وهو الذى ولى الصلاة على عمر ــ وكان له صاحباً ــ وكان أحمر شديد الحمرة (١).

ويجمع النبى عليه الصلاة والسلام هذه الباقة الإنسانية معه فى حديث يقول فيه: « أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبش» (٢).

ويأتى الآسيويون إلى المسجد النبوى ــ أجيالا بعد أجيال ــ فيجدون لهم أباً كان فيه من الصحابة هو سلمان .

ويأتى الروم ومن وراءهم ، فيجدون لهم أباً كان فيه ، هو صهيب.

ويأتى الإفريقيون ليجدوا بلالا مؤذن رسول الله .

الأجناس كلها تمثلت فى الصف الأول من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام . ويقولها الرسول عن سلمان « سلمان منا أهل البيت » .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧ : ٣١٨ .

(٢) السيوطى : الجامع الصغير ١ : ١٠٧ .

ويقولها عمر بن الخطاب من بعده: «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه » .

حقوق الإنسان :

أسوق هذا القول والعالم الإسلامى والدول الصديقة تحتفل بمرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ، وقد توافق هذا مع احتفال الأمم المتحدة بمرور عشرين عاماً على إقرار وإعلان « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » وقرارها بأن يكون عام ١٩٦٨ سنة تتعاون شعوب الأرض فيها على تعميق مضمون هذا الإعلان الذى تنص مادته الأولى على : « يولد جميع الناس أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلا وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء » .

وتقول مادته الثانية : « لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان دون أى تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر ، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء . . . »

وتتوالى المواد حتى تبلغ الثلاثين عدداً . . ثم تتلفت عينى إلى تطبيق ذلك فى حياتنا المعاصرة .. قضية أرضنا السليبة ، ومسجدنا الأقصى المحترق ، والآف المشردين من أوطانهم ، وفى أوطانهم . . التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقية وفى كثير من الدول المتقدمة . . الحرب فى فيتنام .

ترى لو كان الفيتناميون بيض الوجوه ؟ هل تكون المعاملة كما هى الآن ؟ والأمريكيون السود الذين يساقون إلى مصارعهم فى قضية لا يؤمنون بها ، ويقتلون إخوانهم فى الإنسانية بغير ذنب ولا جريرة . .

بل التفرقة العنصرية فى نيويورك نفسها ، بين الشارع الخامس وحى « هارلم » حيث يسكن الزنوج . . هناك تحس أنك انتقلت بين عالمين : حتى القطار يسير فى القسم الأبيض تحت الأرض ، فإذا ما أدرك حى « هارلم » حيث يسكن السود برز فوق الأرض يفرض عليها وجوده .

القرآن والتفرقة العنصرية :

وعدت إلى القرآن الكريم لأرى كيف عالج القضية معالجة كان تطبيقها العملى ما نرى فى أرض القرآن .

وذكرت حى الأزهر عندنا فى القاهرة ، وفى رحابه يجتمع طالبو العلم من مشارق الأرض ومغاربها . . من قارات الأرض جميعاً ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، فى إخاء ما أحوج الإنسانية إلى اقتباسه . .

إن القرآن لم يذكر البياض مادحاً ، ولا ذكر السواد ذاماً ، وإنما ذكرهما ظاهرات تدل على قدرة الله وخلقه .

إن القرآن يذكر اختلاف الألسنة والألوان وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية ، ويعتبرها جميعاً أدلة على وجود الله . ووضعها بهذه الصورة دون أن يفرد لها وحدها دراسة خاصة ، وفى هذا أعمق الدلالة على أنها مجرد ظاهرات كغيرها من الظاهرات الطبيعية والبشرية ، تجمعها كلها نظرة واحدة من التأمل الذى يعمق الإيمان فى النفس ، ويدعوها إلى العمل القائم على الحب والرحمة .

وفى هذا يقول الله تعالى :

« فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمسُونَ وحِينَ تُصْبِحُون * ولَهُ الحَمْدُ فى السَّمٰواتِ والأَرْضِ وعَشِيًّا وحِينَ تُظْهِرُونَ *

يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ الميِّتِ ، ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحَىِّ ، ويُحْيِى الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ، ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ورَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * ومِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلَافُ أَلسِنَتِكُمْ وأَلوانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * ومِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم باللَّيلِ والنَّهارِ وابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * ومِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمعاً ، ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِى بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إن فى ذَٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

[الروم : ١٧ — ٢٤]

وحديث القرآن الكريم عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس ، يماثل حديثه عن اختلاف الألوان فى آفاق البيئة الطبيعية . هو مظهر لقدرة الله ، له فى النفوس قداسة واحترام ، وواجبنا حياله أن نعمل وفق أوامر الله ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وفى هذا يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ

obeikandi.com

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ »

[فاطر ٢٧ : ٢٨]

على أن الذى يستوقف النظر فى الآيتين : الأولى التى تخبرنا عن اختلاف الألوان بين الناس ، والثانية عن اختلاف الألوان فى الغطاء الصخرى والنباتى وعالمى الحيوان والإنسان ، أن الأولى تنتهى بقول الله : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » والثانية بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

هنا نلتمس ربطاً بين هذه الظاهرات وضرورة البحث العلمى فيها ، واطمئناناً من القرآن الكريم إلى أن ما يكشف عنه البحث العلمى الموضوعى فى هذا المجال ، لن يكون متعارضاً مع الأساس الذى تقوم الحياة عليه ، وهو أن يكون الناس جميعاً إخوة — فهم أبناء أب واحد — وأن يعملوا فى الحياة دون أن يكون لفروق اللون — بشرية كانت أو طبيعية — من الأثر ما يعوق هذا التعاون الإنسانى من أجل حياة أفضل .

وعندما نحتفل بذكرى مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ، وتحتفل الدنيا بمرور عشرين عاماً على « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » لنذكر أصولا حضارية نعيش فيها ، ولا تزال كثير من الدول المتقدمة تتعثر على طريقها ، وتعجز عن رؤية جوهر الإنسانية الواحد وراء اختلاف الألسنة والألوان .

ذكريات من المسجد النبوى ، ومن تطبيق القرآن فى ذكرى الاحتفال بنزوله.. وآمال تشتد حاجة الإنسانية الظامئة إلى تحقيقها ، وعندها من كتاب ربها شفاء لأدوائها ، وري لظمئها . . كتاب يستوى أمامه الناس جميعاً :

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً من أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الكِتَابُ ولا الإِيمانُ ، ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ من عِبَادِنا ، وإِنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِراطٍ مُستقيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِى له ما فى السَّمَواتِ وما فى الأَرْضِ أَلاَ إلى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ » [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣]

٥ ـ السلام

وهذه الكرامة الإنسانية مضافة إلى ركائز الإيمان والعلم والعمل تستهدف إقامة السلام فى هذه الدنيا . . السلام الذى كرمه الله فى أكثر من موضع من كتابه :

جعله الله على لسان المؤمنين فى قوله : « وإِذَا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً » [الفرقان : ٦٣] .

وجعله تحية للمؤمنين يوم يلقون ربهم : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلامٌ » [الأحزاب : ٤٤]

وجعله رفيق الحياة فى كل أمرها : « والسَّلامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويومَ أَموتُ ويومَ أُبْعَثُ حَيًّا » [مريم : ٣٣] ..

بل جعله ربنا من أسمائه الحسنى فقال : « هَوُ اللهُ الَّذِى لا إله إلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المؤْمنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجبَّارُ المُتَكبِّرُ ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشركُونَ » [الحشر :٢٣]

كثيرة هى الآيات والمواقف التى ذكر فيها ربنا السلام فى كتابه . . ولكن أى سلام ؟

إنه السلام القائم على العدل ، وفرق كبير بين السلام والاستسلام . . فرق كبير بين السلام العزيز ، وبين السلام المستخذى الذليل .

إننا من أجل السلام العزيز نعد أنفسنا ، ونعيد تكوين جيشنا وقوتنا ، وننظم صفوفنا لاسترداد حق سليب ووطن مغتصب .

هذا هو السلام الذى يدعو إليه القرآن الكريم . . سلام بعد الحصول على الحق وإقامة شريعة العدل ، ولنسمع فى هذا قول الله تعالى :

« وإنْ طائفَتانِ من المؤْمنين اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فإنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا على الأُخْرَى فقَاتِلُوا التى تَبْغِى حَتَّى تَفىءَ إلى أَمْرِ اللهِ ، فإنْ فَاءَتْ فأَصْلِحُوا بَينَهُمَا بالعَدْلِ وأَقْسِطُوا ، إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسِطِينَ » [الحجرات : ٩] .

وبعد . . فهذه كلمات فى هذه الذكرى الكريمة . . ذكرى مرور

٢٧

أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرآن الكريم . . كلمات من كتاب لا تفنى عجائبه ، وما أشد حاجة الإنسانية إليه . .

دعانا — فيما دعانا — إلى الإيمان وإلى العلم وإلى العمل وإلى كرامة الإنسان وإلى السلام . .

إيمان يحفظ لنفوسنا وحدتها فلا تتوزعها الأهواء ، ويضع فيها ميزاناً تفرق به بين الحق والباطل ، ويدفعها إلى العمل الدائب مؤمنة أن مردها إلى الله .

وعلم تبذل الإنسانية جهدها فى تحصيله ،وتجعله فى خدمة الحق والسلام . .

وعمل تترجم به العلم والإيمان إلى حقائق مجسدة . .

وكرامة إنسان تدعو إلى احترامه حيث يكون ، دون نظر إلى لونه أو جنسه أو وضعه الاجتماعى . لا تحرمه قوتاً ولا كساء ولا علماً ولا عملا ولا حقاً .

وسلام هو الهدف الأسمى لذلك كله على أساس من العدل والحق الذى قامت به السموات والأرض .